٤- عقبة بن نافع

هل تسمع بمدينة «القيروان» فى تونس ؟

إنها المدينة التى اختطها وأنشأها «عقبة بن نافع» ـ رضى الله عنه ـ، ومن ثم جعلها خط الدفاع الأول، وحصن المسلمين فى الشمال الأفريقى، وما تزال إلى اليوم قائمة تحمل فى مضامين أحيائها القديمة نفحًا من روح وعزم هذا القائد البطل .

***

نسبه وولادته ونشأته:

ولنعد إلى «عقبة» نسير معه مراحل ولادته ونشأته.

هو: «عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر» ـ القرشى ـ ؛فهو يلتقى مع رسول الله ﷺ عند جده الأعلى «فهر» .

أما أبوه «نافع» فكان من جملة المشركين الذين ناوؤا الإسلام وحاربوه، واشتدوا على أهله، ونفروا عن الهدى والنور، حتى أذن الله تعالى لبعضهم أن يسلموا ويحسن إسلامهم، ومنهم «نافع» الذى أسلم بعد فتح «مكة» ـ كما جاء فى بعض الروايات[1] ـ .

ولقد آذى «نافع» والد «عقبة» مع شخص آخر اسمه «هبار بن الأسود» ذات يوم «زينب» بنت رسول الله ﷺ إذ نخسا[2] ـ مع غيرهما جملها وهى فى طريقها مهاجرة، وكانت حاملاً، فرُوِّعت وأسقطت ـ رضى الله عنها ـ .

هذا ـ نسب «عقبة» من ناحية أبيه، وهو ثابت على هذه الصورة.

---

(١) الإصابة : (٣ ـ ٥١٦).

(٢) نخس : وخز الجمل بالرمح ، فاضطرب وهاج.

لكن اختلف نسبه من ناحية الأم، فقيل هى سَبِيَّة من «عَنَزَه» اسمها «النابغة» وعليه فهو أخو «عمرو بن العاص» لأمه[1].

وفى رواية أنه ابن خالة «عمرو بن العاص»[2]، وفى رواية أن «عمرو بن العاص» خاله[3]، وفى رواية أيضًا أنه ابن أخى «العاص بن وائل السهمىّ» لأمه[4].

وعلى كلٍ فإن قرابة «عقبة» من «عمرو بن العاص» ثابتة، وإن اختلفت فى طرقها.

أما مولده ـ رضى الله عنه ـ فقد كان قبل الهجرة بسنة[5].

وهناك رواية تقول بأنه ولد قبل وفاة النبى ﷺ بسنة[6]. ولا صحة لها، وهى مردودة، لأن «عقبة» شهد فتح مصر مع «عمرو بن العاص» واختط بها[7].

وكان فتح «مصر» سنة عشرين للهجرة (٢٠)هـ، كما تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين فى فتح «زويلة» فى «ليبيا» سنة إحدى وعشرين!! فليس من المعقول أن يشهد «عقبة» غمار الحروب والمعارك وعمره عشر سنين!!؟؟ أو أن يتولى قيادة جيش وله من العمر إحْدى عشرة سنة.!!؟؟.

***

النشأة:

لقد نشأ «عقبة» فى بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكرى بحت، فحمل سلاحه مجاهدًا فى العصر الذهبى للفتوحات الإسلامية وبرز فى ساحات القتال متحملاً قسطه الأول فى الجهاد، بحرص واندفاع، وتجردٍ وإقدام.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٢) المغرب فى حلى المغرب (١ ـ ١٩).

(٣) الإصابة : (٥ ـ ٨١).

(٤) سير أعلام النبلاء : (٣ ـ ٣٤٩).

(٥) الخلاصة النقية (٥).

(٦) البيان المغرب (١ ـ ٣ .

(٧) اختط بها : بنى وسكن .ولعل حى « ميت عقبة» فى ضواحى القاهرة ينسب إليه ـ والله أعلم .

نشأ ـ كما سبق وقلنا ـ فى بيئة إسلامية خالصة، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ، ولم تصح له صحبة ، ويقال: له صحبة وهو رأى لا دليل عليه، وعلى كلٍ فهو صحابى بالمولد، وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة[١].

كما أنه تولى منصب القيادة فى أيام الفاروق «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه ـ وكانوا لا يؤمرون فى الفتوح غير الصحابة[٢]، وكان «عمر» لا يولّى إلا الصحابة، ولا يرضى أبدًا أن يعمل صحابى تحت قيادة غير صحابى.

ونشأ «عقبة» ـ أيضًا ـ فى بيئة ذات طابع عسكرى بحت، فأهله «بنو فهر» لهم ماضٍ معروف فى الحروب أيام الجاهلية، ولهم حاضر مشرف فى الفتح الإسلامى، وأقرباؤه ـ وعلى رأسهم «عمرو بن العاص» ـ هم أبرز قادة الفتح.

لقد تهيأ لـ «عقبة» الجو المناسب والظروف المناسبة، وكذلك البيئة المناسبة، فاجتمع فى تكوين شخصيّته: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائدًا من ألمع قادة الفتح الإسلامى على الإطلاق، خاصة فى الشمال الإفريقى كله، من حدود مصر إلى أقصى المغرب.

***

جهاده:

انضم «عقبة» إلى جيش «عمرو بن العاص» الذى فتح فلسطين، ثم شهد معه وإلى جانبه فتح «مصر» واختط بها ـ كما أسلفنا القول ـ فاكتسب ـ رضى الله عنه ـ من معارك فتح «مصر» ومن أساليب «عمرو» فى إدارة القتال وخططه خبرة عملية ـ وبرزت مواهبه القتالية والقيادية بصورة مبكرة ولافتة، مما جعله يتقدم الصفوف ويتولى عن كفاءة القيادة.

ففى سنة إحدى وعشرين للهجرة (٢١)هـ، بعثه «عمرو» على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة»، فافتتحها صلحًا، وكانت تقع فى أقصى الجنوب من «ليبيا»

---

(١) الاستقصا: (١ ـ ٦٩).

(٢) الإصابة: (٢ ـ ١٩٤).

وصار ما بين «برقة» على الساحل إلى «زويلة» سلمًا للمسلمين، قد أصبحت خالية من كل وجود روماني .

***

وكان «عمرو» قد كتب إلى الخليفة «الفاروق» ـ رضى الله عنه ـ يعلمه:

ـ (أنه قد ولى «عقبة بن نافع الفهرى» على المغرب، فبلغ «زويلة» وأن ما بين «زويلة» و«برقة» سلم كلهم، حسنة طاعتهم قد أدى مُسْلمهم الصدقة، وأقرَّ معاهدهم بالجزية).

وأنه (قد وضع على أهل «زويلة» ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعًا أن يأخذوا الصدقة[1] من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم).

***

من الغرب إلى الجنوب ..!

وحيث إن «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ قد نجح نجاحًا عظيمًا فى تأمين الحدود الغربية لـ «مصر» رأى «عمرو» أن يستخدمه فى تأمين الحدود الجنوبية، ما بين «النوبة» إلى السودان .

فاستقدمه إليه، وأقرَّه على رأس جيش من المسلمين، وطلب إليه قصد «النوبة» وهناك لقى «عقبة» ومن معه قتالاً شديداً، فانصرف عنها بناءً على توجيهات القيادة العامة فى «مصر» قيادة «عمرو بن العاص»، راجيًا أن تتاح الفرصة الأفضل فيما بعد. وبهذا يكون «عقبة» أول من مهد لفتح «النوبة»، على يد «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» .

ولم يكن «عمرو» ليترك الحدود الغربية من غير حماية . . ، فلقد قام بنفسه إلى «ليبيا » حين كان «عقبة» فى «النوبة»، خشية الانتقاض، أو الإغارة.

***

(١) الصدقة : الزكاة .

فى برقة ثانية، واليًا عليها:

عاد «عقبة» إلى برقة التى اتَخذ منها قاعـدةً لأية انطلاقة نظرًا مستقبلاً فى عمق الشمال الإفريقى. . ، وأضحت من ثم أشبه بـ «الولاية».

وبعد أن تُوفى «عمـر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ مستشهدًا، تولـى «عثمان ابن عفان» الخلافة بناءً على اختيار أعضاء الشورى الستة له؛

وحدث بين «عمرو» و«عثمان» خـلافات، فحضر «عمرو» إلى «المدينة» ورفض العودة إلى الولاية على «مصْر»، فولَى «عثمان» «عبد الله بن سَعْد بن أبى السرح» مكانَهُ؛ وقد كان من قبل واليًا على «الصعيد» وَحده.

وأقرَّ «عبد الله بن سعد» ـ «عقبة» على قيادة حامية «برقة».

***

مع «ابن أبى السرح»:

سار «عبدالـله بن سعد بن أبى السرح» من مصر إلى الشـمال الإفريقى، على رأس جيش ضَخْم ، تعـداده عشرين ألفًا، سنة ست وعشـرين للهجرة (٢٦)هـ، فلما وصلوا إلى «برقة» لقيهم «عقبة» فيـمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية لـ «برقة» وانضم بعضهم إلى بعض، وقصدوا إلى «طرابلس ـ الغرب»، وهناك قاتلوا الروم، وانتصروا عليهم، وغنموا ما عندهم(١).

وشهـد «عقبة» فـتوحات «ابن السـرح» كلها فى الشمـال الإفريقى، وأبلى فى جهاده أعظم البلاء .

***

وبرز اسم «عقبة» أكثر فأكثر ...

ولم يُغادر «برقـة»، بل ظل فيهـا على رأس حامـيتهـا، يحمى ـ كمـا قدمنا ـ الحدود الغربيـة لـ «مصر» فلا يدع الروم يهاجـمون «مصر» من اتجاه «ليبـيا»، وقد

---

(١) ابن الأثير : (٣ ـ ٣٤)

حـافظ على تلك المنـطقـة محـافظة بـالغـة، حتـى فى أصـعب الظروف وأخطر الأحوال.

***

فى البحر:

ومـرت سنوات على «عـقبـة» ـ رضى الله عنه ـ تبـدلت فـيهـا رؤوس الحكم والسلطان، فقد اسـتشهد «على» ـ رضى الله عنه ـ، وثبتت الخلافـة لـ «معاوية بن أبى سفيان» بعد تنازل «الحسن بن على» ـ رضى الله عنه ـ عن المطالبة بها .

كما تغيرت القيادة على «مصر» فعُين على ولايتها «معاوية بن حديج السكونى» وظل «عقـبة» ـ رضى الله عنه ـ فوق متن فرسـه، وسيفه بيـده، لا يهدأ ولا يكل عن الجهاد وتوطيد أركان الإسلام فى البلاد .

حتى إنه غـزا الروم فى البحـر مرتين إحداهـما فى سنة تسع وثلاثين للهـجرة (٣٩)هـ، والأخرى فى سنة تسع وأربعين .

***

عمرو بن العاص واليًا على مصر للمرة الثانية:

وكافأ «معاوية بن أبى سـفيان» صديقه وحليفه «عمـرو بن العاص» على مواقفه معه و مؤازرته له فى خلافه مع «على» ـ رضى الله عنه ـ فولاه على «مصر» للمرة الثانية بعد أن عزله عنها «عثمان بن عفان» ـ رضى الله عنه ـ.

انطلاقة الفتح:

كان «عقبة» كما سبق وعرفنا ـ يقيم فى «برقة» الخط الدفاعى الأول عن «مصر» ومعه حامية من المسلمين، لا يترك فرصة للروم أن يغيروا على مصر لاستردادها أو التفكير فى ذلك.

وكان نعم الأمير والقائد المسئول .

فلما عاد «عمرو بن العاص» إلى ولاية «مصر» استعمل «عقبة» على الشمال الإفريقى كله، وأطلق يده فى الفتح، وجهزه بالقوات والعتاد، وأمده بالجند على التوالى.

وبدأت مسيرة «عقبة» العظيمة..!

انتهى أولاً إلى «لُواتة» وهم قبيلة من أكبر وأشد قبائل البربر، وكانوا قد صولحوا من قبل، وظلوا على عهدهم حتى نقضوه أيام خلافة «معاوية بن أبى سفيان» فغزاهم «عقبة»، فاتجهوا فارين إلى «طرابلس» فتبعهم وقاتلهم هناك حتى هزمهم، فطلبوا منه الأمان، وأن يصالحهم ويعاهدهم من جديد، لكن «عقبة» بخبرته معهم جعلته يتوقف فى ذلك، ثم أبى عليهم، وقال لهم: (إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول فى كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧] ولكن أبايعكم على أنكم توفون ذمتى، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بِعْناكم).

كما عقد «عمرو» لـ «عقبة» على «هوارة» وهى أيضًا من قبائل البربر، شديدة المراس، كثيرة العدد، قوية الشكيمة فراوغوا، هم و«لواتة» وأظهروا الطاعة والقبول، ثم كفروا...، فغزاهم «عقبة» سنة (٤١) هـ، فقتل وسبى.

وفى سنة اثنتين وأربعين (٤٢) هـ، افتتح «عقبة» «غدامس» - على الحدود الليبية الجزائرية - فى قلب الصحراء وقتل وسبى..

وفى سنة ثلاث وأربعين(٤٣)هـ، افتتح كورا من كور السودان[1]، وافتتح «ودّان» ثانية وهى من توابع إقليم «برقة».

وفى سنة ست وأربعين(٤٦) هـ، خرج حتى نزل «مغداش» بلدة قريبة من «سرت» على الساحل الليبى، وكانت «ودّان» قد نقضت عهدها الذى عاهدته من قبل سنة ثلاث وعشرين (٢٣)هـ، فترك «عقبة» جيشه فى «مغداش» واستخلف عليهم اثنين من قادته المعاونين «عمر بن على القرشى» و «زهير بن قيس البلوىّ».

وسار هو إلى «ودّان» فى أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل، وحمل على كل جمل قربتين من الماء.

---

(١) ليس المقصود (السودان) الحالى ، ولكن قلب القارة الأفريقية من ناحية ليبيا والجزائر.

فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة، فحاربهم «عقبة» حتى أخضع البلاد بلدًا.. بلدًا. وقبض على ملكهم فجدع أُذُنَهُ، فقال: لم فعلت هذا بى؟: فقال «عقبة»: فعلت هذا بك أدبًا لك، إذا مسست أذنك ذكرته فلا تحارب العرب!!.

واستخرج منهم ما كان قد فرض عليهم من قبل: ثلاثمائة رأس، وستين رأسًا من العبيد.

***

هل من ورائكم من أحد؟

ولما استتب الأمر لـ «عقبة»فى بلاد «ودّان» سأل «عقبة» أهلها.

- هل من ورائكم من أحد ؟ فقيل له «جَرْمَه»(١).

فسار إليها فى ثمانى ليال من «ودان»، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام،فأجابوا فنزل قريبًا منها على ستة أميال.

وخرج ملكهم يريد «عقبة» فى موكب من الخيل والحرس، فأرسل «عقبة» إليه خيلاً حالت بينه وبين الموكب، ثم أمشوه راجلاً حتى أتى «عقبة» وهو فى غاية التعب والنصب..، فراح يبصق الدم..، وقال لـ «عقبة»: لم فعلت هذا بى وقد جئتك طائعًا؟؟ فأجابه «عقبة»: أدبًا لك..، إذا ذكرته لم تحارب العرب، ولم تفكر فى الانتقاض عليهم!! وفرض عليهم ثلاثمائة رأس وستين عبدًا .

ومضى «عقبة» من فوره لإنجاز فتح بلاد «فزان» حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام فى ربوعها، وهذه كانت أول مرة ، يدخل فيها جيش من المسلمين إلى تلك المناطق فاتحين.

***

(١) هى عاصمة ولاية «فزان».

(٢) تقع فى جنوبى «فزان» ، وهى من أكبر المدن هناك.

وسأل «عقبة» أهل «فـزان»: هل من ورائكم أحد؟ فقالوا: أهل خاور[٢]، وهو قصر عظيم على رأس المفازة[١]، فى وعورة على ظهر جبل. . ، فسار إليها «عقبة» فترة خمس عـشرة ليلة، فلما وصلها دعا أهلهـا إلى الإسلام فأبوا، وطلب منهم الجزية، فـامتنعـوا فى حصنهم، فـحاربهم وأقـام على حصـارهم مدة شـهر دون جدوى.

ثم تقدم يفتح بقيـة بلاد الإقليم، ففتحها واحـدة بعد الأخرى، ثم قبض على ملكهم وقطع إصبـعه. . ، فقال: ولـم فـعلت هذا بى؟ فقال «عقـبة» أدبًا لك، إذا أنت نظرت إلى إصـبعك لم تحـارب العرب!!، ثم فـرض عليهم ثلاثمـائة رأس وستين عبدًا.

«عقبة» والصحراء:

وكان فى نية «عـقبة» أن يمضى قدمًـا فى مجاهل الصحـراء، فسأل أهل تلك المناطق: هل من ورائـكم أحـد؟ فقـال الدلـيل: ليس عندى بذلك مـعـرفـة ولا دلالة!!؟

فانصرف «عقبة» راجعًا . .

فمر بقصر «خاور» الذى تركه من قبل ، فلم يعرض له. . ، ثم سار ثلاثة أيام، مما جعل أهل الحصن يطمئنون ، ففتحوا الأبواب . . !

ماء فرس:

وأقام «عـقبة» بمكان يُدعى اليـوم «ماء فرس». . ولـم يكن به يومـئذ ولا قطرة ماء، فـأصابهم عطش شديد أشـفى بهم على الهلاك . . ، وصلى «عقـبة»ـ رضى الله عنه ـ ركعتين ودعا الله تعالى. . !

فراح فرس «عقـبة» يبحث بقوائمه فى الأرض حتـى كشف صفاةً[٢]، فانفجر الماء منها، فجعل الفرس يمص ذلك الماء. . ، وأبصره «عقبة» فنادى فى الناس: أن

(١) أول الصحراء الإفريقية.

(٢) الصفاة : الصخرة الملساء .

احتفروا. . ، فاحتفروا سبعين حسيا(١) . فشربوا واستقوا ، وسمى ذلك المكان «ماء فرس».

ثم ارتد «عقبة» برجاله إلى حصن «خاور» فى طريق آخر، غير الذى سلكه إليه من قبل فلم يشعر به أهل الحصن إلا وقد طرقهم ليلاً. . فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا فى أسرابهم، فانقض عليهم، وأعمل فيهم السيف، واستباح ما فى المدينة من ذرياتهم وأموالهم، وقتل المقاتلة منهم.

لقد كانت عودة «عقبة» إلى «خاور» حركة بارعة طبق بها مبدأ المباغتة، إذ أطبق على أهل الحصن فى وقت لم يتوقعوه أبدًا. . ، و«الحرب خدعة» ـ كما قال رسول الله ﷺ، من غير غدرٍ ولا ظلم ولا فحش.

***

وكانت فترة غياب «عقبة» عن جيشه الأساسى فى «زويلة» خمسة أشهر، جال خلالها وصال، واستطاع أن يمهد للسلطان فى تلك الأنحاء على أحسن وجه وبأقل الخسائر وأعظم النتائج.

يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» فى تعليقه على هذه الحركة من «عقبة»: (لقد أقدم «عقبة» على التغلغل فى الصحراء بقوات خفيفة، لأن الحركة فى الصحراء صعبة جدًا بقوات كبيرة، لقِلَّة المياه فيها، ولأنه قدر أنه لن يصادف فى تغلغله قوات ضاربة كبيرة للعدو. . ، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال فى مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التى تتوفر فيها المياه، والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام «عقبة» غير قوات سكان الصحراء الأصليين، وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل «عقبة» ا. هـ.

***

(١) مفردها : حسْية ، وهى الحفرة القريبة العمق

ثم انطلق «عقـبة» بقواته غـربًا، وسلك طريقًا غيـر مأهول، مُتَّجـهًا إلى أرض قبيلة «هوارة» فافتتح كل حصن فيـها..، ومضى بعدها إلى مدينة «صفر» ـ تعرف اليـوم باسم «صفـرد» وهى إحدى مـدن شمـال المغـرب، فى قلب جبـال أطلس الوسطى.

ثم بعث خيـلاً إلى «غدامس» فافتـتحها ثـانية بعد أن انتقـضت، ثم توجه إلى «قفـصة» ـ إحدى مدن تونس المشـهورة ـ، فافـتتحهـا، ثم افتتح «قـسطيلية» فى الشمال التونسى، وبعدها عاد إلى «القيروان».

***

«القيـروان» مـن أعظـم إنجازات «عقبة» ـ رضى الله عنه ـ:

والمقصود بقولنا: عاد إلى «القيروان»، عودته إلى «قمونية»، إذ لم تكن «القيروان» قد اختطت بعـد، أو أنشئت. وكانت «قمونية» منذ أيام «ابن السـرح» منزلاً لجيوش المسلمين، لأنها فى بسيط من الأرض، كثير المراعى، خصب التربة، كثير المياه.

لكنه لا يصلح من الناحـية العـسكرية، فيكـون قاعدة أمـينة، لأن بعض غـير المسلمين كـانوا يسكنونه مع المسلمين، وقد يكون بعض هؤلاء (طابورًا خـامسًا)، وعيـنًا تتجـسَّس على المسلمين، وفى هذا خـطر شديد على المسلمـين الذين دأبوا على الفتـح والحركة فى كل اتجـاه، توطئة لنشـر الإسلام، فى كل ربوع الشـمال الأفريقى.

قال «عقـبة» لرجاله: (إن إفريقيـة إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فـإذا تركها رجع من كان أجاب منهـم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معـشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر).

فقال بعض أصحاب «عقبة»:

ـ قرِّبها من البحر ليكون أهلها مرابطين..

فقال لهم: إنى أخاف أن يطرقها صاحب «القسطنطينية» فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللُجَّة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم فى غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبدًا..، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير[1] فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر وميتهم فى الجنة.

فاتفق رأيهم على ذلك.

فقال: قربوها من السبخة ...

فقالوا: نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها فى الشتاء وحرها فى الصيف..

فقال: لابد لى من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل، وهى التى تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بدٌ من المغازى والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا فى مرعاها آمنةً من غارة البربر والنصارى.

فركب إلى موضع «القيروان» اليوم..، وكان غيضة كثيرة الأشجار، مأوى للوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه. وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليهم من أسلم من البربر فأمر ببناء القيروان[2]، سنة خمسين للهجرة (٥٠)هـ وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

فأصبحت المدينة معسكرًا للمسلمين وأهلهم وأموالهم، يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوِىَ جنان من هناك من الجنود وأمنوا واطمأنوا، وثبت الإسلام فيهم.

***

(١) أى مسافة قصر الصلاة.

(٢) القيروان معناه فى اللغة: مدينة أو معسكر وهو فارسى معرب، أصله كروان أو: كربان، ومعناه: قافلة، أو مراح القوافل.

إلى شاطئ المحيط:

وفى سنة خمس وخمسين هجرية (٥٥)هـ استعمل «معاوية بن أبى سفيان» على مصر وإفريقية «مسلمة بن مخلد الأنصارى» وعزل «عقبة» عن إفريقية، وعين «مسلمة» بدلاً من «عقبة» مولى له اسمه «أبو المهاجر دينار».

وأساء هذا الأخير معاملة «عقبة» فسجنه وقيده بالحديد، ولبث القائد فى السجن بضعة شهور، حتى جاء كتاب «معاوية» بإخلاء سبيله، وإشخاصه إليه فى دمشق.

فلما بلغها كان معاوية قد تُوفى[(١)]، وتولى«يزيد بن معاوية» الخلافة، فاستسمح «عقبة» مما أنزل به، وأعاده إلى عمله على الولاية، وأطلق يده .

عاد «عقبة» من الشام إلى إفريقية، حتى بلغ «القيروان» ومعه عشرة آلاف مقاتل، فلم يلبث بها سوى أيام، ثم تركها وفيها حامية كثيفة من الجند على رأسهم «زهير بن قيس البلوى» أحد قادته المشهورين.

وقبل الخروج دعا أولاده ووصاهم قائلاً: (إنى قد بِعْتُ نفسى من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله[(٢)] يا بنى إنى أوصيكم بثلاث خصال، فاحفظوها ولا تضيعوها:

(أ) إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه.

(ب) وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّين ذل بالنهار وهمٌّ بالليل.

(ج) ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا.

---

(١) ابن الأثير (٤ ـ ٤٢).

(٢) رياض النفوس (١ ـ ٢٢).

وعليكم سلام الله، وأراكم لا ترونى بعد يومكم هذا.

اللهُمَّ تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك[1].

وانطلق «عقبة» فى أكبر وأطول سياحة من مسيرة جهادِهِ..

سار «عقبة» فى عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة «باغاية»، لا يدافعه أحد، والروم يهربون فى طريقه يمينًا وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها، فقاتلهم قتالاً شديدًا[2].

فانهزموا عنه، وقتل فيهم قتلاً ذريعًا، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل «عقبة» فنزل على «تلمسان» ـ فى الجزائر ـ وهى من أعظم مدنها، فانضم اليها مَنْ حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه فى جيش ضخم لَجِب، والتحم القتال، حتى ظن المسلمون أنه الفناء ولكنهم هاجموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم حتى أبوابها، وأصابوا منهم مغانم كثيرة.

***

وسار«عقبة» إلى بلاد «الزاب» فسأل عن أعظم مدينة فى بلاد الزاب، فقيل له: «أربة» وهى دار ملكهم ـ العاصمة ـ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية، كلها عامرة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل «عقبة» إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم فقام «عقبة» فى الناس خطيبًا:

(أيها الناس، إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان[3]، على من كفر بالله إلى يوم القيامة،

---

(١) رياض النفوس (١١ - ٢٢).

(٢) ابن الأثير (٤ ـ ٤٢).

(٣) يوم الحديبية.

وهم أشرافكم والسـابقون منكم إلى البيعـة، باعوا أنفسهم من رب العـالمين بجنته بيعة رابحـة، وأنتم اليوم فى دار غربة، وإنما بايعتم رب العـالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البـلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينـه، فأبشروا، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم ـ عز و جل ـ لا يسلمكم. . ، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتـلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين).

***

ويكفى ـ عزيزى القارئ ـ أن تعيد قراءة كلمة «عقـبة» مرة ثانية لتتأكد من سمو الروح الإيمانى الذي كان متغلغلاً فى كيان «عقبة».

***

. . . والتقى المسلمـون بأعدائهم، وقـاتلوهم قتالاً شـديدًا، فاشتـد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخـيرًا. . ، فانهزم الروم والبربر، وأخذهم السيف، وكثر فيهم القتْل،وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

***

وسار «عقـبة» حتى نزل على «طنجـة» فلقيه بطْريق من الروم اسمـه «يليان»[1] فأهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه.

وأراد «عقبة» فتح الأندلس. . !

فقال له «يليان»: أتتـرك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك فى بحـبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد؟

فقال «عقبة»: وأين كفار البربر ؟

فأجابه «يليان»: فى بلاد «السوس» وهم أهل نجدة وبأس.

(١) تحريف لـ « جوليان ».

فقال «عقبة»: وما دينهم؟

قال «يـليان» ليس لهم دين، ولا يعـرفون أن الله حق، وإنما هم كـالبهـائم.. (وكانوا على دين المجوسية يومئذ).

فـتوجـه «عقـبـة» فنزل على مديـنة «وليلى» بالقرب مـن «طنجة» بإزاء جـبل «زرهون» - بالقرب من «فاس»، وهى يومـئذ أكبر مدن المغرب، فيـما بين النهرين العظيمـين «سبُو» و«ورغة»، وهـذه المدينة المسماة اليوم عـلى لسان العامة «قـصر فرعون» فافتتحها «عقبة» وغنم وسبى.

***

وانتهى «عـقبة» فى غزوه إلى «السـوس الأدنى» - وهو مغرب «طنجة»- فـقاتل جمـوع البربر الكثيـرة، وقتل منهم قـتلاً ذريعًا، وبعث خـيله فى كل مكان هربوا إليه.

ثم سار حـتى وصل إلى «السوس الأقصى» وقـد اجتمع له البـربر فى عدد لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم.

وسار «عقبة» زاحفًا حتى بلغ «مالبان» فى أقصى بلاد المغرب عند شاطئ المحيط الأطلسى، ورأى البحر المحيط، الذى كان يسميه العرب «بحر الظلمات»..

واندفع - كما تقول بعض روايات التاريخ - بفرسـه فى مياه البحر حتى بلغ الماء قوائم الفرس، ثم قال قولته الشهـيرة، التى ما تزال تتردَّد فى الأسماع إلى اليوم، شاهدةً على صدق جهـاد «عقبة» وبطولته وفروسيتـه، قال «عقبة»: (يا رب... لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك)[1] ثم قال: (اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهـود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كـفر بك حتى لا يُعْبد أحد من دونك).

***

(١) ابن الأثير (٢ - ٤٢، ٤٣).

رجع «عقبـة» باتجاه «القيروان» قاعدته الأمـينة الحصينة، الحبيبـة إلى نفسه. . ، فلما بلغ «طنجـة» أذن لمن معه من أصـحابه أن يتفرقـوا ويتقدموا إلى «القـيروان» فوجًا فوجًـا، للتَّخفُّفِ والراحة، ثقة منه بما نال من العدو، وثقـة منه بنفسه، وأنه لم يبق أحد يخشاه.

ومال «عقبة» بخيل يسيرة يريد «تهوذه»، وهم قبيلة من البربر يقيمون فى أرض تعرف باسـمهم، وكـان معه حـوالى ثلاثمائة فارس. . . ، فلـما رآه الروم فى قلة طمعـوا فيه فـأغلقوا الحـصن وشتمـوه، وهو يدعوهم إلى الإسـلام، ولم يقبلوا منه[1].

***

وبعث الروم سرًا إلى رجل زعـيم من البربر فى قوات «عـقبة» يدعى «كُسَيْلة» كان قد حارب المـسلمين من قبل ووقع أسيرًا، ثم أظْهر الإسـلام. . ، فدعوه إلى الانتقاض على «عقبة» والتحالف معهم، فأظهر ما كان يضمر من الغدر، ثم جمع أهله وبنى عمه، وقصد «عقبة».

فقال لـ «عقبة» أحد رجاله: (عاجله قبل أن يقوى جمعه !).

وهذا الرجل هو «أبو المهاجر دينار» الذى تولى على إفريقـية حين عزل «معاوية ابن أبى سفـيان»«عُـقبة» عـنها وهو الذى حبس «عـقبـة» وعَذَّبه قبـل إرساله إلى «دمشق».

وكان مع «عقـبة» فى قواته مقيـدًا بالسلاسل، استئـمانًا من غدره، يطوف مع «عقبة» فى كل تنقلاته وزُحُوفِه.

***

استمع «عقبة» إلى نصيحـة «أبى المهاجر» فزحف على «كسيْلة»، لكن «كسيلة» لم يواجهه، بل تنحى عنه، انتظارًا لوصول الأمداد إليه من قبيلته وأتباعه.

---

(١) ابن الأثير (٤ ـ ٤٣)

فلما رأى «أبو المهاجر» هذه الحركة العسكرية، وكان فارسًا بطلاً، مجربًا فى القيادة، تمثل بقول «أبى محجن الثقفى» - يوم القادسية - . إذ حبسه «سعد بن أبى وقاص» لشربه الخمر، وكان هو الآخر من الفرسان الأشداء:

كفى حزنًا أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودًا على وثاقيا

إذا قمت عنّانى الحديد وأغلقت ... مصارع من دونى تَصُمُّ المناديا

فبلغ «عقبة» مقالة «أبى المهاجر» فأطلقه من قيوده وقال له: الحق بالمسلمين، وقم بأمرهم - أى الذين قصدوا «القيروان» -، وأنا أغتنم الشهادة !!!

فلم يفعل ذلك «أبو المهاجر»، بل قال: (وأنا أيضًا أريد الشهادة).

وكسر «عقبة» والذين معه أجفان[1] سيوفهم - كناية عن الاستماتة، والقتال حتى الشهادة - وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعًا.. ومعهم «عقبة» - رضى الله عنه - ورحمهم، وكانوا قرابة ثلاثمائة، من كبار الصحابة والتابعين.

***

استشهد «عقبة» - رضى الله عنه - سنة ثلاث وستين هجرية (٦٣)هـ، فى معركة «تهوذة »من أرض «الزاب» بـ«المغرب». وكان مولده - كما عرفنا - قبل الهجرة بسنة واحدة.

وقبره يزار بـ «الزاب»[2]، كما أنّ أجداث الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض «الزاب»، يزارون حتى يومنا هذا، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف بـ « مسجد عقبة »[3].

***

رضى الله عن البطل المجاهد، والفاتح العظيم «عقبة بن نافع الفهرى » وأكرم نزله ومثواه.

***

(١) أجفان السيوف : أغمادها

(٢) الخلاصة النقية (٥).

(٣) الاستقصا (١ - ٧٤).